إلى جشاد وبحالماكة المشروب إذا طاب بولا والطعام الطيب إذا عاد
عذرته والعصير إذا أصبح مسكرا أو غير ذلك مما استحالت عينه فهي
شيء يعقد بالنظر إلى غاياتها وماديتها خسيسة بالنظر إلى ما
فاعليتها وسوغ استعمال الخبيث طاهر منها لمنزلة الضرورة من
إلماء ابن عبد السلام بعد كلام له وبالجملة أن الخطة الشرعية
في أزماننا أسماء شيء يعقد على مسميات خسيسة أمس
بها وقد سلب للكتابة رضي الله تعالى عنهم اعتنائهم بكتب الوثائق
وانتحله أكابر المعتنين وأهل الشورى من الأكابر الأفراد المتسنين
وغيرهم فقد صار أن هذه الصنعة تهان إهانة الخلق وتنال
بالمذلة والملق حتى عافها أكثر الفضلاء وعابها ما عراه الخمل
بعض النبلاء فقال

سميت صناعة التوثيق لما * أشاع الجهل فيها من إشاعة
فنا وحنة تمر الجبل فيها * ودا ونة تباع على الإشاعة

قال صاحب المنهج ورأيت لبعضهم في سبب هذين البيتين
ما نصه وقلت وقد كتب بعض الموثقين شرا دابة بيني ثني ذكر
على الإشاعة

بكيت لصنعة التوثيق لما * تبدلت الصناعة بالشناعة
فنا ونة تجر الخيل فيها * ودا ونة تباع على الإشاعة

وما ذاك إلا أنهم الحقوا بأخس الحرف ولم يتمسكوا من الطلب
بأدنى طرف وفي مثلهم قيل

إن الكساد قد استولى على الكتبة * لا عز فيه يبيع قرآنا ولا عنبه
أخسس بحرفة قوم رأس مالهم * حبر تبدد في صفحة قصبه

ومن هذا المعنى ما أنشد بعض الأدباء

سماك

سماك العدول كساه الكساد * فبز والعتيق جاه وذو الجد كاد
وأهين كلا ولا غمرته * وخبت النباهة وجب أمراده
ترى أنهم جلوسا وجوها عبوسا * نكوسا نعوسا الحقوا الرماد
فمنهم صبور لما نابه * ومنهم رعوش حزين الفؤاد
يشتكيه عنه الدهر ما سيبى * خصاما فشابه عين الجبن رد
ومنهم سعول بلا علته * ويجمع ببابيته لو أفاد
فبادوا بأنه إلا قوم بسه * أتوا نقصه حاجتكم بأجياد
ومن تكهم منه همسه * وقل كيف تمر بهما بالعباد
وميمي منعها منع نوفسه * ويحميه حنبل وأد تعاد
فأخسس بها صنعة وبلهها * تهين العتيق وتزري بأهل النكاد
فأجمل الأكفي خلاصي فربما * وأغنى عنه فمنع الكساد
فجاء تشبيع الورى أحمر * يجيء الخلائق يوم التناد

قال صاحب المنهج وفيه مثل هذا وما الذين ينبذوا أحكام
الموثقين بالعار أنشد بعض الفضلاء شعرا

فسوق صناعة التوثيق لما * أن بوا كل جاهل بر عيها
لم تكن غير روضة ماستبيحت * فغدا كل ناعق في نعيمها

ومن المحشي جعلهم ما ذكره ابن الخطيب أن عجوزا من معارفه
استفتت كبيرا منهم وقد حلفت بصوم العام تصومه وتفوه
على باب جهنم وكثيرا ما تقول النساء كذا وتخرجت المسكينة
لو فيها وأمرها أن تصوم وتعصر كل ليلة بباب العدل إذ لم يجد
في هذا العالم ما ظهر له أقرب إلى جهنم منه ما عدا الأدلة أشير عمته
وتنبه إلى الخصاص من العدول فكانت تحمل كل ليلة كوزا في ماء الأسنى لعله
باب العدول فعند سماع الأذان تلوكها من علم حامل فال ولعل

Copyright © King Saud University